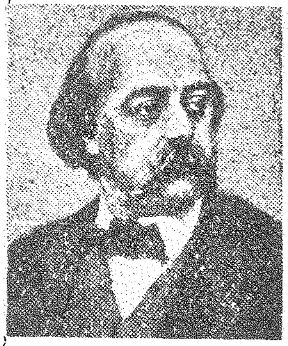

بلادنا ... في منظار "فلوبير"

بقلم الدكتور سهيل ادريس

حين قام غوستاف فلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠) برحلته الاولى الكبرى عبر فرنسا، في عام ١٨٤٠، اي قبل تسع سنوات من رحلته الى الشرق، كتب يقول: «اوه! انا الذي كنت غالباً، وانا انظر الى القمر، في «روان» شتاء، او تحت سماء الجنوب صيفاً، افكر في بابل ونينوى وفارس وتدمر، وفي معسكرات الاسكندر، وزحف القوافل، وأجراس الجمال وصمت الصحراء الكبير، وفي الآفاق الحمراء الفارغة .. اتراني لن اذهب لأروي ظمأي من الشعر والنور، ومن تلك الاشياء العظيمة التي ليس لها اسم، في ذلك الينبوع الذي تحن اليه كل احلامي ?[1]» وبعد عامين، كتب الى صديق له: «أتراني لن ابصر مرة اخرى المقابر المغطرة حيث الضباع تعوي كامنة تحت مومياءات الملوك، إذ يقبل الليل، ساعة تبرك الجمال بالقرب من الآبار ?[2]».

ايكون فلوبير قد حلم بالشرق وشمسه جنّة ضائعة؟ او ترى دماءه كانت مستحرّة اذ كتب: «في كل يوم، تتفاقم حاجتي الى الشمس، فليس في العالم من جميل سواها»[3] فلوبير والشمس، الشمس وفلوبير: كائنان لا بد من ان نشد أحدهما الى الآخر كتلة لا تتجزأ. صحيح ان «مدام بوفاري» تنضح بالضباب؛ ولكنها رواية كلاسيكية. واحرى بنا ان نتحدث عن آثاره المتحررة: «سالامبو» و«غواية سانت انطوان» ومراسلاته التي تتبدى فيها الشمس رمزاً للحياة الساحقة الجبارة.

غير ان فرصة هذه الرحلة، التي داعبها فلوبير طويلاً، لم تسنح الا في تشرين الاول ١٨٤٩. ولقد قام بها بصحبة صديقه ماكسيم دو كامب الذي اوفدته الحكومة بمهمّة رسمية. وبعد اسبوعين، بلغ المسافران الاسكندرية. وإذن، فها هوذا فلوبير يوشك ان يمس الشرق، ها هوذا فلوبير يمس الشرق. وها هوذا نهمه، ذلك النهم الذي يكاد يكون طفولياً، يجد متنفساً له في دابة الصحراء: «وسرعان ما ارتسم الشاطيء، وكان اول شيء رأيناه جملان يقودهما جمّال ..»[1]

ولكن مخيلته التي كانت قد خلقت شرقاً قائماً على صحراء وبدو، ستنهار تحت ضربات الحقائق، كما تنهار مخيلة كل سائح اوروبي؛ غير انها تستعيض عن خيالها الحالم افتتاناً مستلهماً من الواقع. ولقد قضى فلوبير اكثر من سبعة اشهر في مصر (١٥ تشرين الثاني ١٨٤٩ – اول تموز ١٨٥٠) وهناك تمت خطوط رؤيته الحقيقية للشرق[2]. اما الشهر الوحيد الذي قضاه في سوريا ولبنان (ايلول ١٨٥٠) فقد كان على قصره غنياً حافلاً بالوان الانطباعات والملاحظات التي يقصد هذا البحث الى تحليلها.

***

مما يؤسف له ان الروائي الفرنسي الكبير لم يزر من البلدان السورية إلا العاصمة. وكان يحلم قبل ان يحقق هذه الرحلة بزيارة تدمر التي كان تاريخها المشرق يثير كوامن فضوله. وقد زار معظم الرحالة الفرنسيين مدناً سورية كبيرة كحلب وحمص وحماه واللاذقية وسواها، وعادوا بمذكرات لا تفتقر الى الامتاع ولا الى الاهمية. على ان ما خلفته زيارة دمشق في

١ الرحلة الى الشرق. ج ١. المقدمة ص ١١. ٢ مراسلات من رسالة الى ارنست شفالييه، ١٩ آذار ١٨٤٢. ٣ مراسلات - من رسالة الى ارنست شفاليه، ١٣ تموز ١٨٤٧

١ مراسلات – ج ١، ص ٢٦٢. ٢ راجع الدراسة الهامة التي كتبها جان – ماري كاريه J. M. Carré عن «فلوبير في مصر» في كتابه «الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر» ج ٢. طبع القاهرة ١٩٣٢.

نفس فلوبير من انطباعات لم يكن دون ذلك في الامتاع والاهمية ، وإن ظل عرضة للنقاش . فهو قد رأى مشاهد أثارت كل اهتمامه ، وتأمل مناظر استخرج منها لوحات غنية ، ولقي نماذج من البشر رسم لها صوراً حية . ولما كان فلوبير ، بدافع من مهنته ككاتب وبميل غريزي فيه ، شديد الاهتمام بمعرفة طرق العيش لدى الناس ، فان اخلاق السوريين ستكون مادة خصبة للتصوير الاجتماعي الذي يكلف به ، ولكن ينبغي الا ننسى ان ارجاع رحّالة أجنبي ، تختلف اختلافاً قليلا او كثيراً عن أرجاع المواطن المقيم ؛ ولم يشذّ فلوبير عن هذه القاعدة . ونحن نلاحظ من جهة اخرى ان الصورة عنده كانت غالباً ما تضخم الواقع البسيط . ولعل هذا مردودٌ الى ان الكاتب الذي يشعر بحاجة لان يلح احياناً ، يبالغ في رسم الاشخاص والمواقف ، فيخرج عن الحدود التي يخطها الواقع . وهذا يعني ان بوسعنا ان نشكّ أحياناً بصدق فلوبير ، او على الأقلّ بموضوعيته ، كما سنرى في بعض المقاطع الآتية .

ومثل هذا يُقال عن رحلة فلوبير في لبنان . فهو قد زار عدة مدن كزحلة التي خلّف مرأى سهل البقاع منها اثراً عميقاً في نفسه ، وبعلبك التي يصف فيها المعبد الشهير ، تحت ضوء القمر ، ودير القمر وبشري واهدن التي يتجه منها الى الأرز . اما في طرابلس ، فهو يؤثر ان يتكلم عن احاديث شتى أجراها مع بعضهم حول حياة اللبنانيين الدينية . وهو يحتفظ من مدينة البترون بذكرى سيئة ، هي انه شرب فيها « اردأ نوع من أنواع المياه » التي شربها في رحلاته ... ولعل مما يدهش انه لم يجد في بيروت ، التي سافر منها الى رودس ، ما هو حريّ بالوقوف عنده .

واياً ما كان ، فان الصفحات التي تركها لنا فلوبير ، هذا المراقب الدقيق الذي لا تشيخ آثاره ، هي بالرغم من ايجازها ، بل بسبب هذا الايجاز بالذات ، على جانب كبير من الغنى ، سواء أحملت انطباعات لوحات او أشخاص او خصائص انسانية . وإن تحليلها سيعطينا صورة عن فكر فلوبير ونفسيته ، اكثر مما يعطينا صورة عن سوريا ولبنان .

***

تتكشف مذكرات هذه الرحلة عن تلقائية وبساطة عجيبتين . وانما يوفّر لها هذه النضارة وهذا الاشراق ، وذلك المذاق الذي لا يبوخ قط ، لهجة واقعية تنزع احياناً الى الفجاجة .

ولعل ابرز لوحة رسمها الكاتب الفرنسي ، هي لوحة سوق دمشق Bazar . فان حياة دمشق كلها تتجمع في اسواقها كما يرى . « وبقدر ما تضطرب بالناس وتزخر بالكائنات ، تفرغ الشوارع من المارة وتبدو صامتة » ويركز فلوبير عينه المرهفة ، وسيلة الوصاف الاولى ، على السحن والملابس ، فترسم ريشته الصناع هذه اللوحات الحية بخطوط سريعة .

« ان ملابس الرجال الحمراء والخضراء والزرقاء ، وكميات الحرير الفضفاض ، يتدفق عليها كلها من فوق نور النهار المشرق ، إن ذلك كله يؤلف لوناً كبيراً مخططاً ينبعث منه سحر فريد » ثم تأتي الصور المتراكبة : «البائع الجالس عند عتبة حانوته وهو يدخن « الغليون » ويستقبل زواره ومشتريه ، بائع « الشربات » المثلج ، مؤجر الغليون ومعه موقد الفحم الذي تؤخذ منه الجذوات ، فلاح يخرج من الحمام وسط « البزار » فيمر بالناس شبه عار لا تستر جسمه الا منشفة ، وفي ركن من الاركان موضع قبر قديس تتراكم عنده العصي والعكازات والطرابيش والقبعات والخرق والاسمال المعلقة على الجدران » .

ولا شك في ان تجميع هذه الرسوم التي تنسجم مع جو السوق ، هو من خصائص مؤلف « بوفار وباكوشيه » الذي يبدو حريصاً على بسط معلوماته . ولنقرأ ما يقوله بعد عن « الشيخ بندر عبد القادر ، ذلك الشاب ذي اللحية الصفراء اللبق الحركات ، الانيق الملبس : عمة بغدادية وثوب ازرق » وكان يأتي كل مساء لزيارة فلوبير وصحبه ، حاملاً بعض التحف القديمة التي كان يخفيها في جبته : « فاذا لم اكن هناك « عمّر » شيشتي واخذ يدخنها وهو ينتظرني على الديوان . » ثم يعود الى « البازار » فيلاحظ « ان ما هو جدير بالتنبه اليه جمال الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين ، وهم اقرب الى القصر ، ذوو شعر اسود وعينين كبيرتين سوداوين وبشرة سمراء ... » ويخرج فلوبير هنا من تجريده ليشعرنا بأخوته وبشريته : « ما اشد الحظوة التي ينالها هؤلاء اذا زاروا باريس ! » بل هو يسلس لخياله العنان « لو انني كنت امرأة ، لقمت بسياحة لهو وتسلية الى دمشق ! » (ص ٢٣٩ - ٢٤٠) .

وتأتي بعد ذلك تلك اللوحات المؤلمة التي رسمها فلوبير بعد زيارته للجبانة ولمستشفى الجذام . إنه في طبعه حسي ، وهذا

ما ينقذه . إنه ينجح في تفريغ انطباعاته وتحليلها حتى يتمكن من ان يخلقها ثانية في نفوسنا . لنسمعه يتحدث عن الجبانة المسيحية التي لا تضم إلا قباءً منهارة « تُدفن في كل منها اسرة » ، بل قد تدفن امة بكاملها !» فهو يجد لذة خاصة في ابتعاث الاحاسيس الشاقة والمشاعر التي تخلق الاشمئزاز :
« لقد انحنينا فوق فم احد القباء ، فرأينا في داخله بقايا بشرية مختلطة حول مومياء قد جفت عروقها وتقلصت تحت اسمال الكفن . وهنا وهناك بضعة رؤوس بلا اجساد ، وبضعة اقفاص صدرية بلا رؤوس ، وفي وسط ذلك كله جديلة نسائية صفراء مذهبة ، منسابة في الغبار الرمادي » (ص٢٤١)

اما مستشفى الجذام ، فقد وصفه فلوبير مرتين ، ولكن بعبارات تكاد تكون واحدة [1] وهو وصف يتسم بنزعة واقعية حادة ومؤلمة :

« ان مستشفى الجذام يقع خارج المدينة ، قرب مستنقع تطايرت منه لدى وصولنا الغربان وكواسر العظام ... انهم هناك ، الاشقياء المساكين ، رجالا ونساء ، كلهم معاً ، فليس ثمة بعد حجاب يستر الوجه ولا تفريق بين الاجناس . ان لهم جروحاً متقيحة . وثقوباً في مواضع الانوف .. ولقد وضعت نظارتي لأتبين في أحدهم أتانك يدان اللتان كانتا تتدليان من كتفيه ، ام هي خرق مخضرة ؟ لقد كانتا يدين .. اوه .. اين انتم يارسامي الالوان ! ولقد كان يزحف الى النبع ليشرب ؛ وكان فمه الذي تساقطت شفتاه كأنما هما محروقتان ينكشف عن داخل حلقه . وكان يهذي وهو يمد الينا أسماله اللحمية الزرقاء ... وكان كل من هناك يئن ويصيح وينتحب ؛ وحين تلقوا صدقاتنا رفعوا ايديهم الى السماء وهم يرددون « الله ! » ويستنزلون علينا الرحمات . انهم هناك وحدهم ، يطبّبون انفسهم ، من غير ان يعينهم احد . ان المجذومين يتألمون كثيراً في مرحلة المرض الاولى ، ثم يأتي الشلل بالتدريج . ولا بد ان اسوأ شيء عندهم هو ان يرى بعضهم بعضاً . وما كان افظعه أمراً لو علقت على جدران اكواخهم مرايا !.. »
(ص ٢٤٢)

ان فلوبير المحلل يأخذ هنا نظارته ويقسرنا على ان نتطلع معه ، بفضول فظيع ، الى هؤلاء المجذومين . وهو يلح في اوصافه ويدقق ويتحدث عن المرض لينتهي الى تلك اللوحة الرهيبة ، لوحة المرايا التي من شأنها ان تعكس للمجذومين صورهم المرعبة .. ولا ريب ان في ذلك تجاوزاً للنزعة الواقعية الى النزعة الفلسفية الاخلاقية التي تعلل وتفسر وتدعو الى الاعتبار .

ولكن لهجة فلوبير بعيدة عن ان تتخذ نمطاً واحداً في التعبير . فهو تارة محلل دقيق ، وتارة مفكر أخلاقي ، وتارة وصاف مرهف . وهذا التنوع يشكل ميزة رئيسية لموهبته ، غير انه قد يقصر دون القصد احياناً ، فاذا هو يدنو من البرودة والغثاثة ، اذ يجتزيء بالسرد والتسجيل ، دون ان يريق في ثنايا الاسطر نفساً محيياً . ذلك هو شأنه مثلاً حين يصف زيارته لبعض البيوت اليهودية في دمشق . فيكتفي بخطوط مقتضبة جافة بلهجة باردة ، كأنما هي مذكرات مستعجلة يفكر ان يرجع اليها يوماً فيتمها هيكلا ويكسوها لحما : « معظم البيوت غير مؤثثة . استعمال قطع من المرايا بين الاطر الخشبية والنقوش ، خطوط متشابكة على الابواب ، ومثلها على النوافذ . أعمدة السقف ما تزال تحتفظ بثقوب الاشجار ، وهي مطلية بالازرق والاخضر في بعض الغرف ، تجويفات في الجدران ... » الخ ... وهذا ما نجده كذلك في وصفه لزيارة كنيس يهودي ورسم صور بعض المصلين فيه ، وزيارته لبعلبك ووصف معبدها : « بعض الاعمدة قد حال الى الاحمرار . هوذا مشهد تاريخي لم يرسم مثله فنان ، ولا ينقصه شيء : لا الخرائب ولا الجبال ولا المياه التي اسمع الآن خريرها .. » ثم ينغمر في شروح وتفسيرات في علم الآثار ، بلهجة رصينة مملة ، يتحدث فيها عن الممرات والصخور والنقوش حديثاً جافاً تنقصه روح الفنان [1] . انه هنا يجر خلفه الضجر والاملال ؛ فكأنما هو عاجز عن استنطاق الصخور الصماء والآثار الدارسة ، وعن بعث الايدي البشرية التي ماتت وهي تنقش تلك الاحجار .

ولكن أليس من العجب ان تنتفض هذه اللهجة وتضطرب ويسري في ثناياها روح من الحياة ، حين يقف فلوبير امام المناظر التي قدتها يد الطبيعة ، فتنثال على شفتيه الكلمات ، بسيطة عادية صادقة ، لا تصنع فيها ولا رغبة في بسط المعلومات ؟ انه يقف عند الاعالي التي تشرف على دمشق ، ويتحدث اليك بصميمية : « خرجنا في الساعة الثالثة ، فتهنا في الشوارع طويلاً ، بين جدران تقوم خلفها حدائق كانت ترسل لنا ظلالها

---

١ راجع « مراسلات » ص ٤٤١ .

١ راجع الصفحات ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

عبر اشجار الجوز والليمون ومختلف انواع الثمر ، خضرة قاتمة واضواء باردة ... بضع نساء تمر آتية من حيث لا ادري وذاهبة الى حيث لا ادري.. كل شيء حزين جداً ومرّ جداً. ولعل ذلك بسبب صمت هذه الشوارع المتشابهة الحالية ... ووصلنا أخيراً جبل الصالحية ، فأسفرت هناك دمشق بيضاء بمآذنها التي تخترق السماء وسط الخضرة العظيمة التي تكتنفها، وهذه الخضرة كلها محوطة بالصحراء والجبال .»

ويغادر فلوبير وصحبه دمشق الى لبنان ، فيستروحون على الحدود نسمة جديدة تتغلغل في صدر الكاتب ، فاذا هو يخلف واقعيته ، ويستدعي شاعرية خاصة تترقرق فيها ظلال والوان ورؤى، فكأنما هو ينسى نفسه اذ يدلف الى سهل البقاع المشرق :

« لقد سرنا طوال ست ساعات في هذا السهل العظيم بين بين سلسلتي جبال لبنان . وكان الطابعان الاشقر والازرق يسيطران على المشاهد . وكان جبل لبنان ذا لون لازوردي رمادي فاتن . وحين استيقظنا ، كان السهل كله غارقاً في الضباب ، شبيهاً ببحيره من الحليب المذوب ، بين السلسلتين . ورويداً رويداً تمزق الضباب الخرة متطاولة جعلت تهبط شيئاً فشيئاً ، فتكشف قنن الجبال ، وتظل في هبوطها حتى تبلغ الارض دخانا ابيض سرعان ما يتلاشى .» (ص ٢٤٩)

ويزور فلوبير جبل الارز بعد ذلك : « انه ذو جمال سرمدي . ولقد هبطت منه مشدوهاً . وعدنا الى قرية بشري ، فاذا الشلالات الطبيعية تهبط من الصخور ، كما يرى ذلك في لوحات « بوسين » .. انها بلاد جعلت حقاً للرسم والتصوير ، بل هي تبدو مصنوعة لهما .»

بلاد صنعت للرسم والتصوير ! لا شك في ذلك ، ولكنها ايضاً صنعت لمخيلة فلوبير وحساسيته !

***

اما البشر في بلادنا ، فقد خيبوا ظن فلوبير الذي كان يحلم بصورة رفيعة عنهم ، فاذا هم يبدون ، عبر منظاره ، اقرب الى الفظاظة والغرابة . ولهذا نجد في الصور التي رسمها عن اشخاصهم نزعة تنم عن الخيبة وحس الاكتشاف في وقت واحد ، شأن صورة هذه اليهودية في دمشق :

« ان المرأة اليهودية الضخمة التي رأيناها مساء الاثنين الماضي تشبه « فلور » غانية ملهى « الفاريتيه » : إن جبينها محلوق ، وجفنيها مزججان بالموسى ومصبوغان ، وعينيها تحيط بهما كثير من التجعدات . وهي ذات هيئة طيبة محببة ، واقفة على قبقابها المرصع بالصدف ، تنظر من فوق الى تحت ، مادة بطنها السمين الى امام – وكانت هناك ايضاً امرأة عجوز هزيلة زينت وجهها بريشة نعامة عن كلا الجانبين ، بدلاً من شعرها . » (ص ٢٣٧)

وحتى الاوروبيون المقيمون في الشرق الادنى ، ما كان فلوبير ليوفرهم ، فكأنه غريب عن عالم الاحياء هنا ، او هو يذكرنا بجوليفر او برسوم عجيبة لبلاد خيالية . لقد كتب يصف « فابيان » قنصل فرنسا في دمشق فقال « انه سمين ذو كرش ، ثقيل كثيف لا يؤمن في العالم بغير لحم البقر ، ولا يتحدث الا عن البقر وعن الهناءة المادية ، ويعلن اعجابه بلويس فيليب ويؤثر ان يكون المارشال سولت على ان يكون موليير ، وهو على المائدة ، يحدث خادمه الفرنسي بالانكليزية . »

السنا نرى في هذه الصورة المقتضبة نفسية برمتها ؟ رجل طيني لا يتحدث الا عن البقر، فكأنما هو ينتمي للحيوان ، ويعيش في جو ثقيل من التصنع والتظاهر ؟.. ولننظر الى

مجلة سندباد رابطة تجمع بين قلوب الناشئة في مختلف الأقطار

هذا الكاريكاتور في وصف مستشار القنصل « غارنيه »: « انه اصلع وليست له لحية ، ثل ابداً ، وكان همه ان يرينا رسوماً فارسية بذيئة خليعة .. هذه احداها : ... »

وهنا نشعر بميل فلوبير الى التبسط في وصف هذه المناظر الخليعة ، كأنما يجد لذة في ذلك : إنها نزعته الحسية العميقة التي تتكشف عنها « غواية سانت انطوان » .

واذا عرجنا على حديث فلوبير عما يمت الى اخلاق الشرقيين، كان لنا ان نشك احياناً في اخلاصه وفي موضوعيته. لنقرأ مثلاً هذه الحكاية :

« كان في السوق ولي مسلم يتنزه عارياً من كل شيء ، وهو يشبه انساناً أبله يقوم بحركات غريبة ويرسل الصرخات ؛ وكانت النساء العقيمات يأتين فيقبلن عورته .. وفي الماضي كان ثمة ولي يضاجع النساء في وسط السوق ، وكان الاتراك الاتقياء يحيطون به ومن معه من النساء ، ليخفوهم عن اعين المارة . » (ص ٢٣٩) .

هنا تتكشف نزعة فلوبير للقصص البذيئة ، وهي نزعة تدفعه الى اختلاق اشياء لا تعقل ، ولا يقبل بها فكر صاف ، او الى اقرار مبتسرات سخيفة . فمهما بلغ من اعتدال المسلمين او من تراخي تعصبهم ، فهم لن يقبلوا ان يجري هذا تحت اعينهم . ثم ان فلوبير يدفع السخف الى ابعد حدوده حين يزعم ان بعض الاتراك الاتقياء كانوا يخفون الوليّ ونساءه عن اعين الناس. إن « سذاجة » الشرقيين (والمسلمين) و« جهلهم » لا يفسدان عليهم حس الشرف والكرامة ، هذا الحس الذي يهزأ به الاوروبيون في العادة . ولا بد ان فلوبير قد عدّ « سكان دمشق » حيوانات حتى يمكن ان يوجد فيهم نساء يقبلن ان يضاجعن في الشوارع .. واولياء مجاذيب يفسرون عملا فاحشاً بانه عمل ديني . ولعلّ تعرض فلوبير يتبدى من انه لم ير كل ما تحدث عنه ، بل اورده منقولاً عن رواية ، فترك لخياله العنان ، من غير ان يتحرى الحقيقة ، وحتى قصة ذلك الوليّ العاري ، قصة مختلقة من المحال ان يقرها عاقل .

على ان فلوبير يبدو اقرب الى الحقيقة حين يلاحظ « تأدب سكان دمشق وسلوكهم الطيب بالاجمال . ولقد وجدهم جوزيف[1] قد تغيروا كثيراً ، فأصبحوا اقل تعصباً واكثر تساهلاً من ذي قبل . » (ص ٢٤٠) .

[1] مرافق فلوبير ؛ ويظهر انه كان يعرف سوريا قبل ذلك

وهذا هو رأيه كذلك في مسيحيي دمشق : « حدثنا السيد غوبو، رئيس اللعازاريين ، عن المسيحيين هنا، ان الكهنة العرب[2] هم اكثر تركية من المسيحيين ، والرابطة القومية هي اقوى من الرابطة الدينية ، وهو لا يشكو شيئاً من المسلمين ، على العكس » (ص ٢٤٦) .

وبالرغم من ان فلوبير لم يعرف العربية فقد حدس بالشعر العربي ، الشعر الشعبي ، وعوّض عليه خياله ما فوّته جهله . « لقد نظم احد الشعراء العميان قصة موت الاب توماس[2] ، وطاف يغنيها من باب الى باب ، فيتعيش منها . وهكذا يوجد كثير من امثال هوميروس المشردين الذين يحترمهم الناس كثيراً ويربحون اموالاً طائلة . وقد رأيت شيخاً بدوياً جالساً عند مدخل خيمته يروي القصص الخيالية ذات العنصر العجيب .تأثير الخيال الى ابعد الحدود. ولا شك في ان شاعراً ما يُقدر هنا تقديراً شعبياً كبيراً . وهذا ما لم يحدث قط عندنا ، مهما قيل في ذلك» (ص ٢٤٦)

ولعل فلوبير لا يتجنى كثيراً حين يتحدث عن انتشار اللواط في الشرق ، ولكنه قد يكون مخطئاً في تعليل ذلك بان « الرجال لا يرغبون هنا في النساء » .. وهو يستجيب للحقيقة الواقعة اذ يتكلم عن الاعتدال والتساهل والتفاهم بين المسيحيين والمسلمين ، وعن سلطان الشعور القومي ، ولكنه يعود الى التجني حين يتحدث عن اتيان المنكرات في الشوارع (ص ٢٦٢ — ٢٦٣) .

ومن اطرف ملاحظاته حين يزور صديقه الشيخ بندر انه رأى طاولة بليار في مقهى : « وكان الاتراك في ملابسهم الاوروبية مقتعدين الكراسي ينظرون الى الكرات تتدحرج. انها اوروبا في آسيا ! وهي تدخل بواسطة البليار . ويا لها كم هي تتمدن ! ما عسى ان يكون شأن الشرق بعد حين ؟ ألعله ينتظر البعث عما قريب ؟ »

وانها لنبوءة صادقة !

***

وبعد ، فلعل هذه المذكرات كافية للكشف عن ميزات الرحالة الروائي الكبير ، وعن مساوئه ايضاً . إنه قبل كل شيء مراقب دقيق ، ومراقبته المحسوسة تتركز على السمات

[1] يقصد المسلمين . [2] الذي اغتاله اليهود في دير اللعازاريين ، وكان فلوبير قد عرف قصته .

الخاصة التي يتسم بها انسان او شعب ، فانما يستوقف نظره رأس بارز او هيئة غير مألوفة : فنحن نراه يترصد حركة كاهن ، ويسجل ما تتفرد به امرأة ، وما يلحق بسياسي من زيف وتصنع ، وما يأتيه تاجر من ارجاع .. والحق ان هذه الخطوط الموجزة توحي بمسلك او بمزاج برمته . وهنا تتبدى موهبة مؤلف « مدام بوفاري » . ان الاشخاص الواقعيين الذين تحاذيهم في الشوارع يكتسبون بفضل مراقبته الدقيقة خلقاً جديداً ، فينمون ويتحركون ويتميزون بطوابع خاصة ، ولولا ان فلوبير يولي المستغرب والمسترذل اهمية مبالغاً فيها ، لدنت نماذجه البشرية من واقعها الصحيح . انه يستشعر انبساطاً عجيباً في سرد التفاصيل الشهوانية والحكايات البذيئة ، وهو يجمع صور المسالك الخلقية الشاذة والفكاهات الخليعة ، ويكلف بوصف المشاهد التي تبعث على الذعر ، ولعله في ذلك اوفر الروائيين الفرنسيين واقعية . وهو من غير شك اكثر الرحالة الذين زاروا الشرق واقعية . فلقد اختلق جيرار دو نرفال مثلاً رؤية للشرق استمدها من « الف ليلة وليلة » ، ولهذا كان في حديثه شعر اكثر مما كان فيه من حقيقة

لقد كانت خلة الشرق الموضوع الامثل الذي داعبته مخيلة فلوبير زمناً طويلا ؛ ولئن كان قد اصيب بخيبة من مرأى البشر ونماذجهم ، فان هذا الشرق ظل في نظره بلادالشمس التي هي ينبوع كل حياة ومصدر كل جمال . ومثل هذه الرؤية نجدها في أثر هام من آثار كاتب معاصر هو كامو الذي يحن الى النور في كتابه «الصيف» حنيناً محموماً ويعده رمز الحياة والتفاؤل في بلاده الجزائر ، هذه البلاد التي لا يغادرها الا وفي قلبه اسى ورهبة وخوف من ظلام اوروبا .

ولقد استشعر فلوبير ، هو ايضاً ، مثل هذا الاسى اذ غادر بلادنا ، فكانت آخر عبارة كتبها ، في الساعة التاسعة والنصف من صباح العاشر من ايلول ١٨٥٠ ، هي العبارة التالية :

«اشعر بالحزن حين اذكر اني قد قلت «وداعا» للصحراء واني بعد ردح من الزمن ، لن ارى مرةً اخرى جمالا»[١]

سهيل ادريس

(١) الرحلة الى الشرق، ج ٢ ، ص ٢٤٧

ظهر حديثاً عن

دار المعارف

غ.ل

٩٠٠ المغرب في حلى المغرب ثان تحقيق الدكتور ضيف
١٠٠٠ تفسير الطبري ثالث « محمود محمد شاكر
١٥٠ عنترة الجزء الاول للاستاذ حسن جوهر وشركاه
١٥٠ « « ثان « « « «
٣٠٠ الموجز في الادب العربي اول لجنة من الاساتذة
٣٠٠ « « « الثاني « « «
٤٠٠ كنديد (او التفاؤل) ترجمة الاستاذ عادل زعيتر
٢٠٠ الليلة الثانية عشرة ترجمة خليل مطران
٧٠٠ الاسس النفسية للتكامل الاجتماعي (من منشورات علم النفس التكاملي)
٢٥٠ المثاني للدكتور عبد الوهاب عزام
٢٥٠ حوار الملهمة لمحمد علي الحوماني
٣٠ الجزء مجموعة سيرة الرسول ١٤ جزءاً باشراف محمد برانق
٣٠ الجزء قصص الانبياء ٢٠ جزءاً « « «
٣٠ الجزء مجموعة القصص الدينية ١٢ جزءاً « « «
١٠٠ الجزء مجموعة تفسير القرآن الكريم ٣٠ جزءاً للاستاذ محمود محمد حمزه وشركاه
١٠٠ الجديد في التهجي والمطالعة اول لجنة من الاساتذة
١٠٠ « « « ثان « « «

تطلب من متعهد التوزيع

دار المعارف بيروت

لصاحبها أ . بدران

بناية العسيلي السور ص . ب ٢٦٧٩

ومن جميع المكتبات الشهيرة في البلاد العربية